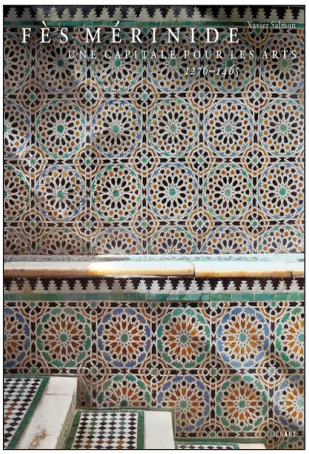

Xavier Salmon.- ***Fès Mérinide. Une capitale pour les arts 1276-1465*** **(Paris: Lienart éditions, 2021), 336p.**

گزافيي سالمون.- فاس المرينية. عاصمة للفنون 1276-1465 (باريس: منشورات لينار، 2021)، 336 ص.

يأتي كتاب فاس المرينية لمؤلفه گزافيي سالمون، تتمة لكتابيه السابقين، حيث خصّص أولهما للمعمار والفن بمراكش زمن حكم السعديين (2016)، بينما اعتنى في الثاني بالمعمار والزخرفة بالمغرب على العهدين المرابطي والموحدي (2018)، مُحاولا بذلك خطّ المعالم الكبرى لتاريخ فنون البناء والزخرفة، وإبراز التقاطعات الموجودة بين هذا الطراز وذاك، فضلا عن تتبع أشكال التأثيرات الخارجية وتجلياتها سواء كانت أندلسية، مغاربية أو مشرقية. وقد اعتمد في تحريره لكتبه الثلاثة على المزج الذكي بين النصوص التاريخية والصور الفوتوغرافية والمعاينة المباشرة، مُبتعدا بذلك عن الأحكام الجاهزة والخلاصات المتأثرة بالفلسفة الكولونيالية والمركزية الأوروبية.

ويعود اختياره لحاضرة فاس دون سائر المدن المغربية، إلى احتضانها أكبر عدد من المباني والمنشآت المرينية وأجملها على الإطلاق؛ فقد اتخذها بنو عبد الحق عاصمة لدولتهم، وشيدوا بها مدينتهم الملكية "فاس الجديد" ابتداء من سنة 1276م، كما أظهروا عناية كبيرة بالنسيج الحضري لمدينة فاس العتيقة [فاس البالي] عبر تجديد المباني العمومية القائمة وإحداث أخرى جديدة. وهذا ما سعى المؤلف إلى إبرازه عبر الفصول الأربعة الرئيسية لمؤلفه، بعد أن مهّد لها بمدخل عام تناول فيه مسار الدولة المرينية من بداياتها في القرن XIIIم إلى الأفول مع اغتيال آخر سلاطينها سنة 1465م.

استهل سالمون سلسلة المنجزات المرينية بالحديث عن المساجد، والتي استرعت اهتمام أمراء الدولة الجديدة منذ استقرارهم بمدينة فاس؛ فقد أضيفت صومعة جديدة لمسجد بوجلود الموحدي زمن حكم الأمير أبو يحيى بن عبد الحق، ورُمّمت الواجهة الشمالية لصحن جامع الأندلس تحت رعاية الأمير أبو ثابت عامر، فضلا عن تدخلات موضعية شملت جامع القرويين بالبناء والزخرفة والتجهيز، واتسمت عموما بمحدوديتها قياسا بحجم المركب الديني. ولعل انعدام الفضاءات الشاغرة داخل مدينة فاس العتيقة حسب المؤلف، هو ما حال دون تشييد مسجد مريني بها، عكس المدينة البيضاء، والتي أتاحت إمكانات مهمة في هذا الصدد، تم استغلالها لتأسيس عدة مساجد جديدة، مازالت ثلاثة منها قائمة إلى اليوم،

وهي الجامع الكبير وجامع الحمراء وجامع الأزهر، شاهدة بذلك على مميزات العمارة الدينية المرينية، ومظاهر تأثرها بالأنماط المعمارية السابقة. لقد حافظت هذه البنايات الدينية على التصميم التقليدي لقاعة الصلاة وطريقة تجزيئ جدار المحراب كما كانت عليه في المساجد الموحدية الكبرى، لكن مع عدد أقل من البلاطات وصحن أكثر اتساعا، فضلا عن مُضاعفة الزخارف والكتابات العربية المنقوشة كوسيلة للتخلص من الفراغ، وهو المبدأ الذي تطور في الآن نفسه بالمغرب المريني والمملكة النصرية، ليطبع فيما بعد المباني المشيدة من قبل السعديين خلال القرنين XVIم وXVIIم.

وبعيدا عن العاصمة، تحضر بصمات الفن المريني بقوة في بعض المباني الدينية بكل من تازة ومراكش، إذ أمر أبو يعقوب يوسف بتوسعة الجامع الموحدي في تازة ما بين سنتي 1291م و1292م؛ فتمت إزالة بلاطة القبلة الأصلية مع إضافة أربعة أساكيب للبلاطات التسع في قاعة الصلاة، بغية إحداث محراب وبلاطة قبلة جديدين، فضلا عن تكثيف الزخارف المكوّنة من التشكيلات النباتية الكبرى والأشكال الهندسية والتلاعب فيها بكل من الضوء والظل، وتزويده ببعض القطع الفنية القيّمة مثل المنبر الذي تم إعداده بواسطة تقنية التطعيم فقط، دون مزجها بالنقش كما جرت العادة في المنابر المرابطية والموحدية، وتزيين البلاطة المحورية بثلاث ثريات، تستعيد كبراها شكل الثريا الموحدية وزخارفها. أما بخصوص مراكش، فقد شُيد بها جامع ابن صالح وصومعته المؤرخة بمرحلة حكم الأمير أبو سعيد عثمان، إضافة إلى تشييد صومعة جامع القصور. وتتسم الصومعتان باستخدام مادة الآجر في بنائهما، مما منحهما طابعهما الرّشيق وعزّز الانطباع بارتفاعهما الكبير، بالرغم من أبعادهما الصغيرة مُقارنة بالصوامع الموحدية. كما حرص مُشيدوهما على استحضار الموروث الموحدي أثناء زخرفة الواجهات متأثرين في هذا الصدد بصومعة جامع المنصور بالقصبة، والتي ألقت بضلالها كذلك على الصوامع المرينية بمدينة فاس.

وبالرغم من كبير عناية بني مرين بالمساجد عبر النماذج المذكورة أعلاه، فقد ظلت عاجزة عن تقديم صورة متكاملة لفنون البناء والزخرفة حينئذ، إذا ما تمت مقارنتها بالمدارس، والتي نجحت حسب المؤلف في التعبير عن كمال الفن الأندلسي المغربي وبراعته في القرن XIVم، بالرغم من عددها المحدود في تسعة مدارس؛ سِت منها بفاس، واثنتان في سلا، وواحدة في مكناس. وتتسم هذه المؤسسات - تبعًا للوصف المقدّم لها في الكتاب - بوحدة على مستوى التصميم والزخرفة بالرغم من وُجود بعض المعالم الدالة على التطور كما هو شأن المدرسة البوعنانية بفاس. ويرجع ذلك إلى تشييد جميعها في ظرف زمني قصير لم يتجاوز 35 سنة [ما بين سنتي 1320 و1355م]، باستثناء مدرسة الصفّارين المبنية بأمر من السلطان أبو يوسف يعقوب

سنة 71-1272م، والتي غاب عن تصميمها الانتظام والتماثل، فضلا عن تعرضها على مر العقود لتعديلات مهمة أفضت إلى تلاشي ملامحها المرينية بنسبة كبيرة. وقد ركز گزافيي سالمون في وصفه لهذه المدارس على صُحونها باعتبارها رمزًا للعمارة والزخرفة في العهد المريني، حيث بالإمكان مُلامسة التوازن، والتقسيم العمودي والأفقي المتنوع للأسطح، وغنى التركيبات الزخرفية ودقتها، والتي استلهِمَ عدد منها من فنون حِرفية أخرى مثل التسفير والتذهيب والنسيج. كما نبّه في سياق آخر إلى ضرورة تفادي تقديم الفن المريني كنِتاج لبصمات الطّرُز الأجنبية، أو كبداية للقطيعة مع التقاليد المحلية، إذ استمر الإرث المرابطي والموحدي قائما داخل الممارسات الفنية المرينية بحُكم احتكاك الحرفيين به، فضلا عن استيعابهم واحتوائهم للتأثيرات الخارجية، النصرية الأندلسية والمملوكية المصرية والتلمسانية زمن حُكم بني عبد الواد.

وخلافا للمدارس التي أبدع أمراء الدولة المرينية في تزيينها وزخرفتها، لم يُبد هؤلاء نفس العناية بمدافنهم، فجاءت بسيطة مُقارنة بمدافن المماليک الرائعة التي شيدوها خلال المرحلة نفسها، حتى أن بعضا منهم دُفنوا في ساحات المعارک أو داخل المساجد مثلما وقع مع السلطان أبي عنان وأربعة من خلفائه. وتوقف المؤلف في هذا الصدد عند قباب/قلل بني مرين أعلى التل المشرف على مدينة فاس شمالا، حيث دُفن أواخر المرينيين، واصفا ما تبقى منها بعدما تَجرّدت من زينتها وشواهدها المحضَّرة "من مرمر مُزخرف بنقوش ومُنمّق بألوان زاهية" استنادا إلى الوصف الذي خصّه بها الحسن بن محمد الوزان. ثم انتقل بعدئذ للحديث عن المركب الجنائزي بشالة الذي انطلقت أولى عمليات الدفن به زمن حُكم الأمير أبو يوسف يعقوب قبل تهيئته بأمر من السلطان أبي الحسن المريني، وذلک عبر تسوير المسجد العتيق والقباب الجنائزية، وإنشاء المدخل الضخم لشالة والمتأثر في هندسته وزخارفه بالأبواب الموحدية [باب الرواح وباب قصبة الأوداية]، فضلا عن ترميم المدافن وتوسعتها وزخرفتها. لكن عمليات النهب خلال القرنين XVم وXVIIIم وزلزال لشبونة سنة 1755م لم يتركان الشيء الكثير على مستوى الأبنية وزخارفها. وبالرغم من ذلک، لم يحُل هذا الوضع دون تحليل بعض التركيبات الزخرفية بواسطة الزليج الملوّن لمدخل الزاوية شمال شرق المركب، ومُقارنتها بنماذج مماثلة لها على مستوى مدخل المدرسة التاشفينية المشيدة بتلمسان ما بين سنتي 1318م و1337م ومدخل مسجد سيدي بومدين في العُبّاد والمشيد سنة 1339م، لينتهي المؤلف إلى ترجيح إنجاز الأبواب الثلاثة على يد الحرفيين العاملين بالورشة نفسها.

أما بخصوص العمارة المدنية بفاس المرينية، فقد تناولها هي الأخرى بالتحليل، انطلاقا من بعض النماذج التمثيلية، مثل حمّام ابن عبّاد المشيد في حي القطانين بفاس نهاية القرن XIVم، بعد كل من حمّام حي المخفية بعدوة الأندلس وحمّام الصّفارين بعدوة القرويين،

والذي اشتمل على نفس القاعات المميزة للحمامات العمومية، ويتعلق الأمر بقاعة الرّاحة ونزع الملابس والتي ما تزال مُحتفظة بزخارفها الكثيرة والمتنوعة وسقفها الخشبي ذو الشكل الهرمي، تليها القاعة الباردة ثم الدافئة فالساخنة. كما قدّم تحليلا معماريا وفنيا مُفصّلا لمجموعة من المنازل المرينية، مثل المنزل الكائن بحي سويقة الذبان غير بعيد عن سوق العشّابين، والمنزل الموجود بدرب الشرّاطين قرب جامع القرويين، فضلا عن دار زويتن ودار الضمانة ودار الأزرق. وقد خلص من دراسته لها إلى تشابهها الكبير على مستوى الزخرفة الداخلية مع المباني الدينية، فقد استعملت مواد البناء ذاتها، إضافة إلى اتباع نفس الطرق والتقنيات الزخرفية، لكنها لم تُظهر أية اختلافات على مستوى التصميم مع المنازل المشيدة قبلها أو بعدها إلى حدود منتصف القرن XIXم.

ومما لا شك فيه، أن المؤلف بذل جهدًا كبيرًا في توثيق مختلف المباني الدينية والجنائزية والمدنية المرينية بمدينة فاس وخارجها، مُعززا توصيفاته لها بصور رائعة وفائقة الجودة، ومُستعينا في التأريخ لها بعدد من المصادر الوسيطية المترجمة إلى اللغة الفرنسية مثل كتابي **الأنيس المطرب** و**الذخيرة السنية** لابن أبي زرع، و**جَني زهرة الآس** للجزنائي، و**روضة النّسرين** لابن الأحمر، وكتاب **العِبر** لابن خلدون...، فضلا عن مُتابعته لنتائج الأبحاث الأثرية المنجزة خلال مرحلة الحماية وبعدها، مما أهّله لتقديم تحليل مُعمّق ودقيق للأنماط المعمارية والزخرفية المستخدمة بمدينة فاس المرينية، والتي أفلح إلى حد بعيد في إبراز سيرورتها التطورية بفضل دراساته السابقة للمعمار والزخرفة بالمغرب المرابطي والموحدي ثم السعدي بعد ذلك.

سمير أيت أومغار
باحث في التاريخ، مراكش
المغرب